العرب
الأحد 2021/10/24
السنة 44 العدد 12219

الإنسان الذري.. فرد غير متسامح يتحرّك ضد نفسه وضد المجموع

عبدالعالي زواغي
كاتب جزائري

يشهد العصر الرقمي الذي نحياه، إقبالا متعاظما على مواقع التواصل الاجتماعي، حيث أنها باتت تجتذب إليها مختلف الشرائح والأعمار، وسط ولع شديد و"مَرَضي" بتطبيقاتها وخدماتها، وحضورا دائما وممتدا في الزمن يستنزف الكثير من الوقت والجهد، أو ما يسميه جان بوردیار بالحضورية.

استحلنا بسبب هذه البيئة إلى ما يشبه كائنات اتصالية نعيش حياة متصلة غير منقطعة، حتى باتت الأجهزة الذكية امتدادا لهوياتنا وذواتنا، نمارس من خلالها وبها كل الطقوس المستنسخة عن الواقع الاجتماعي الذي نعيشه، لكن بشكل افتراضي ضمن واقع آخر مفرط، و"لحظة أبدية" قادت الإنسان إلى التخلي عن المستقبل والماضي بكل الحنين والأمل فيهما، لكي ينغمس في حاضر لا أفق له سوى نفسه، فمستخدمو مواقع التواصل الاجتماعي لم يعد يهمهم سوى عيش اللحظة الافتراضية والانغماس فيها، في إطار قطيعة مع الماضي والمستقبل، تغذيها قيم الحداثة وما بعدها، والتي تقطع حبل الوصال مع القديم وتقديس الجديد، في تضاد مع ما يسميه المؤرخ الأميركي والناقد الاجتماعي كريستوفر لاش بالاستمرارية التاريخية التي لا تنفصل.

يعتبر الكثيرون بأن هذه المواقع هي منتوج حداثي بامتياز، تجاوز تجسيد فكرة الاتصال بشكل مختلف، ليضاف إلى اقتصاد السوق وتعميم نظام القيمة المتبادلة، لذلك فقد وُلد ما يسميه جيل ليبوفتسكي في كتابه "عصر الفردانية" (ترجمة عاطف إدوخراز، مركز نماء للبحوث والدراسات، لبنان)، بالإنسان الذري، هذا الإنسان الذي باتت غايته الأسمى تتمثل في البحث عن مصلحته الشخصية والتطلع الدائم لاكتساب المال والرفاهية والخصوصية والكثير من المتع.

هذا التنامي في النزعة المادية التي غذتها مواقع التواصل الاجتماعي، أدت إلى انقلاب في علاقات الإنسان بالجماعة التي تؤطره وانقلاب النظام الاجتماعي التقليدي برمته، فالإنسان حسب ليبوفتسكي أصبح ينظر إلى نفسه في استقلال عن الآخرين ويغرق نفسه في البعد الخصوصي ضمن فردية جديدة، ويرفض الخضوع للقواعد المتوارثة عن الأجداد الخارجة عن إرادته الخاصة، ولا يعترف إلا ببقائه ومصلحته الخاصة كقانون أساسي.

إن مواقع التواصل الاجتماعي غذت كل هذه التوليفة المرفوقة بضجيج صاخب، مدفوعة في ذلك بفكر يحتفي ويقدس "ميثولوجيا التقنية" التي غزت الحياة الإنسانية وحملت معها الكثير من المباهج والمنافع والتسهيلات للإنسان، وذللت أمامه الكثير من الصعوبات التي لم يكن ليتخطاها لولا المنجز التقني، في جو اجتماعي جارف يشجع على كثرة استخدام هذه الوسائل وتطبيقاتها التي تتجدد باستمرار ودون توقف.

الإنسان في مواقع التواصل ينظر إلى نفسه في استقلال عن الآخرين ويغرق في فردية لا خصوصية فيها

لكن بالمقابل فقد لاح سؤال آخر بما يشبه صيحة استنفار، تنذر بالتأثيرات السلبية وبما قد تفعله التقنية ووسائل التواصل الاجتماعي بنا، لاسيما في الشقين الثقافي والاجتماعي، فتمددها واتساعها واختراقها لنمط عيشنا وتفاعلاتنا الاجتماعية وثقافتنا العصرية الحديثة، صار شبيها بالفخ كما يسميه زيغمونت باومان، فنحن اليوم في قبضته وبين شدقيه، يصطاد عواطفنا وبقايانا الهشة، ونحن رغم ذلك منتشين وفي قمة السعادة بهذا الوقوع الكارثي.

لقد كسفت فكرة التواصل وحرارة العلاقات الاجتماعية في ظل الثورة الرقمية، والعلاقات الحقيقية استبدلت بالافتراضية مع فقر في التواصل وأسلوب متراخ وسطحي تنعدم فيه لياقات الحديث وصيغ وآداب الحوار واللمسة الإنسانية، بل إنها مفارقة غريبة، فلم تقد هذه الثورة بإنجازاتها الكثيرة كما كان مأمولا، إلى تجدد الإنسانية وتطورها وإلى بلورة المزيد من القيم التي تحتفي بروح الأخوة والصداقة والكرامة، بل أعلنت عن ميلاد فرد فائق يتحرك ضد نفسه وضد المجموع ضمن ممكنات واقع فائق أيضا، فهذا الإنسان أصبح مزيدا ومدعما بالافتراضي والبدائل الاصطناعية، مُفرغا من الداخل في ظل فقدان ثقل المعنى، مجردا من عيش اللحظة بكل مشاعره، وأضحى يكتفي بتقييدها وتصويرها وتأريخها تأريخا مفرطا دون أي إحساس بها.

تواصلنا الاجتماعي كما يراه باومان أضحى يأخذ صورة "المونولوج" على أن يكون حوارا فعالا مثمرا، وفي هذه الأفضية الرقمية لا يوجد مكان لتغييب الأنا أو مواراتها، ما يحكم الأشياء بالضرورة هو منطق الحضور والظهور والإفصاح، لا منطق الخفاء والتخلي، وكنتيجة لذلك، فقد أحكم المخيال الفيسبوكي المرغوب فيه سيطرته على وعينا، وصار الإدمان على مواقع مثل فيسبوك إدمانا رقميا يقذف بالمزيد من "الدوبامين" والنشوة فينا كلما تزايد عدد المتابعين وتكاثرت أيقونات الإعجاب وتوالت الإشعارات المختلفة، الأمر الذي خلق المزيد من الأمراض النفسية في حالة عدم بلوغ المطلوب أو المرغوب.

هذه الوسائل كما يراها جان كلود لارشيه في مقالة له، أصبحت استبدادية، أي أنها أصبحت لا غنى عنها ومفروضة على الإنسان إلى درجة أنه عاجز عن القيام بأي مهام دون اللجوء إليها، فهناك انغلاق تدريجي للإنسان المعاصر في هذا الفضاء إلى الحد الذي يمكن أن نعتبره أسيرا باستعماله الإرادي لهذه الوسائل، التي تدعوه لإظهار نفسه باستمرار، محاولا تقديم أليق صورة ليراها الآخرون، وهذا هو التجلي الأكبر لنزعات الإنسان الحديث، حيث مملكة أهوائه ونزواته، وإلغاء صريح للحياة الخاصة لأن كل شيء معروض، حتى ما تعلق بالحياة الحميمية بإظهارها بشكل غير مضبوط وغير أخلاقي، ولا مجال فيها للحياة الشخصية العميقة ولا للخصوصية.

قادت إغراءات مواقع التواصل الاجتماعي إلى بزوغ إنسان غير متسامح وغير صبور يريد تلبية حاجاته بسرعة في عالم دون انتظارات ولا صبر، فهو بحسب رؤية لارشيه منهك على الدوام ومنطو على ذاته وجهازه في شكل عبادة لهذا النظام التواصلي المتواصل، مما أفرز تدهورا مريعا للحياة الاجتماعية وتآكلا متزايدا للعلاقات الشخصية وانحسارا لرقعة التواصل بين الأفراد والعائلات حتى داخل العائلة الواحدة، فالجميع موجودون في مكان واحد لكنهم في نفس الوقت يعيشون في عوالم مختلفة، محبوسون في فقاعات متعددة لها خصوصياتها ومجالاتها واهتماماتها المختلفة، أي في شكل جديد ربما من التوحّد، مع ما يرافق هذا الاستعمال المفرط من أمراض نفسية واجتماعية كثيرة باتت تقض حياتنا العامة وتهددها من أساساتها بشكل غير مسبوق، أثبتها العديد من الدراسات التي أجريت حول الموضوع.

لقد أفرز هذا النزوع نحو الإفصاح عن الذات، ظهور نماذج من المؤثرين المهوسين بالمتابعات واللايكات، الذين نصبوا أنفسهم أبطالا أيقونيين مسنودين بشعبية زائفة، وشهرة عرضية وثقافة ضحلة تركز على صور السيلفي والدعابة والاستهتار والسخرية وكل أشكال التفاهة، التي يبدو أن جمهور مواقع التواصل الافتراضي يفضلونها أكثر من أيّ شيء آخر، بعدما ساوت مواقع التواصل الاجتماعي بين الجميع، لطابعها الأفقي وقدرتها على إلغاء أي حدود أو اعتبارات أو هرمية.

وهذا يبرزه بصورة جلية الفارق في عدد المشاهدات والمتابعات لصفحات علماء ومفكرين ومثقفين وخبراء، يقدمون محتوى ثقافيا نخبويا أو أفكارا جادة بعيدة عن الابتذال، التي لا تبلغ مقدار ما تبلغه صفحات أخرى لأشخاص يقدمون محتوى سطحيا وتافها لا يحمل أيّ قيمة.

فالناس اليوم، وخاصة الشباب منهم، كما ترى إلزا غودار في كتابها "أنا أسيلفي أنا موجود" (ترجمة سعيد بن كراد، المركز الثقافي للكتاب، المغرب) يبحثون عن أنماط للتواصل تكون سريعة وبسيطة، وهذا ما يفسر الاستعمال المفرط للصور والفيديوهات، فلقد أصبحت الصورة كما تقول، استعجالا إلى درجة أن مضمونها أصبح ثانويا، ضمن لغة جديدة يطلق عليها الخطاب عن طريق الصورة، ومضمون هذه اللغة، للأسف، يتميز بالهشاشة وتعتبر مصدرا للتشويش، فهي بسيطة ولا يمكن أن تقيم حوارا عميقا وفضلا عن ذلك لا غاية منها، وبهذا المنطق الذي فرضه الواقع الافتراضي على مستوى مواقع التواصل الاجتماعي، فقد انقلبت النماذج والقدوات رأسا على عقب، فلم تعد النخبة هي ما يشكل المرجعية والمثال الذي يحتذى، بل انتقل ذلك إلى الحمقى وأراذل القوم.

إننا اليوم نواجه هجوما ممنهجا على منظومتنا الاجتماعية والثقافية، بفعل استخدامنا اللاعقلاني للتقنية من جهة، وبفعل مقصود أيضا وخفي، من طرف الملاك الكبار لهذه التقنية وحراس السرديات الكبرى في العالم، لذلك من نافلة القول، التأكيد على أنه يجدر بنا أمام تغول مواقع التواصل الاجتماعي وتغلغلها المخيف في أدق تفاصيل حياتنا، بكل ارتداداتها العنيفة على ثقافتنا وواقعنا الاجتماعي وعلاقاتنا البينية الحقيقية، أن نعيد النظر في استخدامها المفرط و مراعاة حجم الوقت الذي نخصصه لها، والعودة إلى ذلك الزمن الجميل الذي يحفل بالحميمية والدفء والقيم والثقافة الحقيقية غير المبتذلة.

سقوط سعيد في فخ الحداثة واستبداد الشاشات

اليسار الجديد حركات تنفي العالم وتحاول تغييره

حسام الدين محمود فياض
باحث وأكاديمي سوري

أطلقت كلمة اليسار الجديد (New Left) على الحركة الشبابية التي ظهرت في غرب أوروبا والولايات المتحدة الأميركية، في أواخر خمسينات القرن العشرين لتمييزها عن الاتجاهات اليسارية التقليدية السابقة عليها. حيث وصلت ذروة تطورها واشتهار نفوذها في أواخر الستينات وتدنت أحوالها في السبعينات، ويجزم زعماؤها أن الطبقة العاملة قد أذعنت لعملية التحول إلى البرجوازية، ولم تعد قوة ثورية هامة، وإنّ على المفكرين الراديكاليين أن يوفروا القوة الثورية الجديدة الدافعة لتغيير الواقع الاجتماعي (عبدالوهاب الكيالي: موسوعة السياسة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت).

وعلى الرغم من اختلاف الرؤية الأيديولوجية لليسار الجديد عن اليسار القديم كليا، إلا أنهما يشتركان في روحهما العامة التي تستهدف تغيير المجتمع القائم (أحمد زايد: علم الاجتماع النظريات الكلاسيكية والنقدية، دار المعارف، القاهرة). يرى معظم المفكرين السياسيين والاجتماعيين أن اليسار الجديد ليس تنظيما واحدا، بل هو عبارة عن جماعات متنوعة بعضها محلي وبعضها قومي وبعضها الآخر مؤقت تماما، والآخر دائم. وأنصاره في غالب الأمر من الشباب الراديكالي الجامعي وغير الجامعي، يتصف بأنه ديمقراطي تحرري، ومعارض يعاني كثيرا من القلق إلى جانب أنه ليس معاديا للشيوعية، ويهتم هذا الشباب بإحداث تغيرات متنوعة في النظام السياسي والاجتماعي من خلال السلوك المباشر الذي يعتمد على الاحتجاجات والمظاهرات والمقاطعة، والعصيان المدني، كما أنه يتبنى في أشد صوره تطرفا وسيلة العنف الفيزيقي (أحمد سليمان أبوزيد: نظرية علم الاجتماع والنقد الراديكالي، جامعة الإسكندرية).

ويسعى أيضا نحو تغيير القيم الثقافية، من خلال محاولته لإيجاد قيم أخرى بديلة تمثلت في اهتمامه بأدوار الفنانين وعملهم، باعتقاده أن عملهم يتضمن نقدا حادا للقيم التقليدية السائدة. وينبثق أيضا اهتمامه بالفن والجوانب الجمالية بصورة عامة في إيمانه بأن ما يحتاج إليه المجتمع الأميركي في ذلك الوقت قدر كبير من التغيير الثقافي أكثر من التغيير المادي (ألفن جولدنر: الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي، ترجمة وتقديم: علي ليلة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة).

بهذا نجد أن شباب اليسار الجديد يعبّر عن جماعة مجال تنحصر جل مسلماتها الأساسية في التطلع إلى بناء جديد من العواطف والواقع الشخصي الذي يتضمن الحرية ورفض الحروب، والتأكيد على التلقائية والكرامة والابتكار والمساواة. بعكس ما هو سائد في المجتمعات الغربية وبالأخص الولايات المتحدة الأميركية (عبدالرازق جلبي وآخرون: نظرية علم الاجتماع، الاتجاهات الحديثة والمعاصرة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية).

تاريخيا يرتبط اليسار الجديد بالحركات الاجتماعية، تماما كما يرتبط بحركة النقد الاجتماعي واسعة النطاق للنظام الرأسمالي. فقد ربط اليسار الجديد نفسه بحركات الاحتجاج الاجتماعي: حركة الزنوج، وحركة الطلبة، وحركة السلام.

بمعنى أن ظهور اليسار الجديد تزامن مع ظهور وتفجر قوى الحركات الاجتماعية الرافضة لسياسات وأيديولوجيات الغرب، الساعية إلى تحليل هياكل السلطة الرأسمالية الحديثة، في مختلف المجالات لتوضيح التناقضات بغية تحديد المهمة الرئيسية لهذه الحركات، فعلى سبيل المثال ترى هذه القوى أن الأحزاب الليبرالية والديمقراطية الساعية إلى الإصلاح والرفاه الاجتماعي في معالجة، مشكلات وقضايا المرأة قد فشلت في تحقيق هذه المهمة، ناهيك عن إخفاقها أيضا في الحدّ من مشكلات الفقر والتفاوت الاجتماعي، فعلى العكس تماما هناك ازدياد مطرد للنزعة الاستهلاكية الثقافية الجديدة، وأيضا هناك ازدياد واسع لأشكال السيطرة والاغتراب. فالدولة نفسها قد أصبحت هي التكنوقراطية وشرعيتها تبقى على نحو متزايد عرضة للتساؤل، لذا نجد أن اليسار الجديد حاول أن يتبنى أغلب هذه الحركات.

أما فكريا "فقد تطورت الأفكار الاجتماعية النقدية لليسار الجديد في العالم الغربي وبالأخص أميركا في ستينات القرن الماضي بتأثير من الماركسية الجديدة التي تبنت كتابات ماركس المبكرة ذات الطابع الإنساني، حيث صاحب ظهوره ظهور حركة فكرية ذات طابع نقدي تهدف إلى نقد البناء الاجتماعي الغربي وما يعانيه من مشكلات، بالإضافة إلى نقد البناء النظري السوسيولوجي، تعبيرا منها عن رفضها لكل ممارسات المجتمع الرأسمالي وما يرتبط به من أيديولوجيات ونظريات".

شباب ديمقراطي تحرري ومعارض يسعى نحو تغيير القيم الثقافية من خلال التمرد في محاولته لإيجاد قيم أخرى بديلة

يعتبر كلا من رايت ميلز وهربرت ماركيوز من أهم منظري اليسار الجديد في منتصف ستينات القرن الماضي. وهما اللذان يعتبران بمثابة الأبوين الروحيين لحركات اليسار الجديد، وبالأخص حركة الطلبة عام 1968 التي "استقت جزءا كبيرا من قوامها وممارستها الراديكالية من فكرهما باعتبارهما من الأعضاء البارزين من المستويات العليا للرئاسة الأكاديمية" (توم بوتومور: علم الاجتماع من منظور اجتماعي نقدي، ترجمة عادل الهواري، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية).

فقد وضّح لنا الفكر السوسيولوجي لميلز كيفية التعامل مع النظريات السياسية الليبرالية، والديمقراطية بالمنظور النقدي الذي لا يكتفي بالاقتصار على الفكر السياسي باعتباره نظرية بل يتعدى ذلك إلى الفحص السوسيولوجي لكيفية عمل النظرية السياسية في الواقع، والشروط الاجتماعية والاقتصادية التي تمارس في إطارها الديمقراطية الحديثة (أشرف منصور: النقد المعاصر للفكر السياسي الليبرالي، تقديم: مهدي بندق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الكتاب الأول). وذلك من خلال نتاجه الفكري الذي تجسد بأهم كتبه منها "صفوة القوة" عام 1956 و"الخيال السوسيولوجي" عام 1959، "حيث قدم ميلز فيهما تحليلات نظرية نقدية لفتت أنظار الكثير من الباحثين آنذاك نحو الأيديولوجيا الامبريالية السائدة في المجتمع الأميركي، وسعيها نحو الحفاظ على الوضع الراهن، كما حاول ميلز أيضا الكشف عن مظاهر الوعي الزائف بين أفراد المجتمع الناجم عن تسلط الصفوة السياسية في ممارسة السلطة واتخاذ القرارات" (عبدالرازق جلبي وآخرون: نظرية علم الاجتماع، الاتجاهات الحديثة والمعاصرة، مرجع سبق ذكره).

أما ماركيوز فقد عكست آراؤه قدرة فائقة على استيعاب أحداث العصر، حيث استطاع من خلالها تأمل الأبنية الفكرية بهدف محاولة تغييرها، وبالتالي تغيير المجتمع ذاته. حيث صاغ في كتابه "الإنسان ذو البعد الواحد" عام 1960 فلسفة اليسار الجديد، فأنتج أفكارا نقدية بالغة الأهمية سعى من خلالها إلى كشف ممارسات ومفرزات العقل الأداتي (العقلانية التقنية)، في المجتمع الصناعي المتقدم وانعكاساتها السلبية على الإنسان داخل ذلك المجتمع، كما انتقد العقل الأداتي وما آلت إليه الحداثة الغربية الرأسمالية أو الاشتراكية عبر التطورات الاقتصادية والتكنولوجية التي شيأت كل شيء حتى الإنسان.

ويعتبر مفهوم الإنسان ذو البعد الواحد من أهم المفاهيم التي حللها وناقشها ماركيوز، ويعني "الإنسان البسيط غير المركب"، فالإنسان ذو البعد الواحد هو نتاج المجتمع الحديث، وهو نفسه مجتمع ذو بعد واحد يسيطر عليه العقل الأداتي والعقلانية التكنولوجية والواحدية المادية، وشعاره بسيط هو التقدم العلمي والصناعي والمادي وتعظيم الإنتاجية المادية وتحقيق معدلات متزايدة من الوفرة والرفاهية والاستهلاك، بحيث تهيمن على هذا المجتمع الفلسفة الوضعية التي تطبّق معايير العلوم الطبيعية على الإنسان، وتدرك الواقع من خلال نماذج "كمية – رياضية" وتظهر فيه مؤسسات إدارية ضخمة تغزو الفرد وتحتويه وترشّده وتنمطه وتشيئه وتوظفه لتحقيق الأهداف التي حددتها (للمزيد من الاطلاع انظر: حسام الدين فياض: تطور الاتجاهات النقدية في علم الاجتماع المعاصر، دار كريتار، إسطنبول).

أما عن اتجاهه النظري والمنهجي فقد تمثل في رفضه السلبي للمجتمع القمعي القائم، من خلال الثورة عليه للتأكيد على الدور الثوري والحاسم للعقل، في حياة الإنسان الاجتماعية، ولتجنب النظر إلى المجتمع الإنساني نظرة ذات بعد واحد. وتتلخص وجهة نظره في آلية تغيير الواقع والثورة عليه، بضرورة التأكيد على الانفصال عن النظام القائم وتبني قيم مضادة له.

وفي النهاية يمكننا تعريف اليسار الجديد بأنه "حركة نفي للعالم، أنه يمثل قوة بناءة ترفض العالم من أجل تغييره. ويرتبط رفض العالم من أجل تغييره إلى الأفضل بتصور فكري أو يوتوبيا معينة يعملون على تخطيها وتحويلها إلى واقع. كما أن اليسار يرغب دائما في التقدم، ويتوق إلى أن يسيطر الإنسان على مصيره، وهو ينظر إلى نفسه على أنه منتصر في النهاية وينظر إلى البرنامج الذي يطرحه على أنه نفس الشيء الذي تأمل في تحقيقه الإنسانية على مر الزمن" (أحمد زايد: علم الاجتماع، النظريات الكلاسيكية والنقدية، مرجع سبق ذكره). إذن اليسار الجديد، يُعنى بالحرية، والمدنية، والتخيّل، والاختلاف، والثورة، من دون اعتقاد دوغمائي (الجمود الفكري) بالشيوعية والماركسية، وبذلك فهو نفي لعالم قائم بإثبات عالم ممكن جديد.

حركات شبابية تجمعها العواطف والواقع الشخصي

ص10 تنشر كاملة على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية